الدعوة للحروب الصليبية *

(كريستوف ماير)

مراجعة سمير رزق الله

كيف استطاعت أوروبا أن تنظم الحملات الصليبية الواحدة بعد الأخرى على مدى قرنين كاملين تقريباً؟ وبمعنى آخر، ما هي الآليات التحريضية التي استخدمت في أوروبا لإقناع الملايين من الأوروبيين بقطع المسافات الكبيرة باتجاه بلاد الشام وخوض معارك شرسة كان معظمها خاسراً في نهاية الأمر وراح ضحيتها مئات الألوف من الجانبين أيضاً؟ وبالتالي ما هو الدور الحيوي الذي لعبته الكنيسة، وعلى رأسها البابوية في روما، في تجييش القوات المختلفة من مناطق أوروبية متنوعة المصالح والاتجاهات؟

هذه التساؤلات لا تنفي طبعاً الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية لاندلاع الحروب الصليبية واستمرارها مدة 200 عام تقريباً. غير أن عشرات الكتب والدراسات أشبعت تلك الجوانب بحثاً واستقصاءً من الجانبين العربي والأوروبي، فلم يعد هناك من مزيد اللهم إلا اجتهادات جديدة تحمل طابعاً إيديولوجياً واضحاً. ولذلك فإن كتاب الباحث السويسري كريستوف ماير، الصادر باللغة الإنكليزية قبل مدة، يستحق اهتماماً خاصاً كونه يركز على دور الرهبان المسيحيين في التبشير بالحروب الصليبية والتحريض عليها، بل ودعمها مالياً، في القرن الثالث عشر الميلادي أي بعد مضي حوالي مئة سنة على قيام أول حملة صليبية باتجاه بيت المقدس.

(*) Preaching the Crusades, By: Christoph T. Maier. Cambridge University Press, London 1994.

وإذا كانت المعلومات المتوافرة عن دور البابوية الكاثوليكية في روما على صعيد التحريض على الحملات الصليبية، منذ البداية وحتى الهزيمة النهائية على أيدي المماليك، معروفة إلى حد بعيد، فإن الباحث السويسري اختار الكشف عن جهاز كنسي آخر لم يقل دوره أهمية عن روما البابوية على الرغم من أنه كان ينتمي إلى نوع الأخويات الرهبانية التي كان يفترض فيها الانعزال والتقشف والاقتصار على الأمور الروحية في حين أن التفاصيل التي يظهرها الكتاب تبيّن أن هؤلاء الرهبان لم يكتفوا بالمهمات التبشيرية التحريضية وإنما ساهموا في مرات كثيرة على الأصعدة المالية والسياسية لدعم الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر.

يركز المؤلف بحثه حول أخويتين اثنتين هما الأبرز والأكثر تنظيماً من بين كل الأخويات الرهبانية التي نشأت في أوروبا خلال القرون الوسطى. وهاتان الأخويتان هما الفرنسيسكان والدومنيكان اللتان أسسهما فرانسيس الأسيسي ودومنيك غوزمان على التوالي في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي في أجواء الحماس الديني الأوروبي للحملات الصليبية. بل أن فرانسيس الأسيسي شارك شخصياً في الحملة الصليبية الخامسة التي احتلت مدينة دمياط المصرية، ويقال إنه التقى السلطان الكامل بعد أن عقدت الهدنة بين الصليبيين والمسلمين في تلك المرحلة.

صحيح أن هاتين الأخويتين، وغيرهما من المؤسسات المسيحية المماثلة في أوروبا، لم تنشأ من أجل الحروب الصليبية بالتحديد. لكن المؤلف يكشف أنه بعد الإحباطات التي واجهت الحملات الصليبية في أعقاب انتصار حطين الحاسم، وجد البابا إينوسنت الثالث أنه من الضروري تغيير العقلية التي تنظم الحملات الصليبية وتديرها. وأبرز ما عمل على تعديله هو إنشاء قيادة مركزية لجيوش الصليبيين تكون بديلاً عن القيادات الإقطاعية المتنافرة في كثير من الأحيان. غير أن هذا البابا مات من دون أن يجد أفكاره في حيز التنفيذ، فكان على خليفته أونوريوس الثالث أن يواصل المهمة. واكتشف هذا البابا أنه لتحقيق مركزية القيادة الصليبية، كان لا بد من وجود جهاز إعلامي تحريضي واسع الانتشار في أوروبا مهمته التبشير والتحريض والتجييش وتحصيل الدعم المالي عند الضرورة.

ومرة أخرى يفاجيء الموت البابا، فتكون على عاتق خليفته غريغوري التاسع

مسؤولية وضع تلك الخطة موضع التنفيذ. وابتداء من العام 1230 كلفت أخوية الفرانسيسكان بالتبشير للجهود الصليبية في مناطق الشمال القريبة من بحر البلطيق، وفي أواخر الثلاثينات كلفت الأخويتان الفرانسيسكان والدومنيكان بالعمل لصالح الحملات الصليبية باتجاه الأرض المقدسة. والسبب في اختيار هاتين المجموعتين، على حساب الكهنوت الكنسي التقليدي، يكمن في حاجة البابا إلى جهاز منظم ومدرب بالتحديد على مهمات التبشير وهي الميزة التي يتمتع بها الرهبان الفرانسيسكان والدومنيكان. والمؤلف يكشف من خلال الوثائق الأصلية والمرويات التاريخية المعاصرة النشاطات التي قام بها هؤلاء الرهبان طيلة القرن الثاني من الحروب الصليبية.

ويستغرب الباحث السويسري كيف أن المؤرخين الغربيين المعاصرين والكتابات التاريخية القديمة تجاهلوا فعاليات الإخوانيات الرهبانية في الحروب الصليبية، إلا إذا كان الحديث يتناول شخصية راهب كانت مميزة في مرحلة من المراحل. وهو يرى أن الوثائق التي رجع إليها تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الفرانسيسكان والدومنيكان كانوا الأداة الإعلامية الضاربة لبابا روما في جهوده الحثيثة، ليس فقط للتبشير بالحروب الصليبية والتحريض عليها، وإنما كذلك لتأكيد سيادة البابوية على المستويات السياسية المختلفة في أوروبا. والوثائق التي كانت بمتناول الباحث تأتي أساساً من أرشيف الفاتيكان الذي يتضمن نسخاً عن مراسلات البابا مع قادة الأخويات والملوك والأمراء الأوروبيين وقادة القوات الصليبية، وكذلك من بعض السجلات المحلية حيث كان للفرانسيسكان والدومنيكان نفوذ إقليمي مؤثر.

يغطي المؤلف نشاطات الإخوانيات الرهبانية التحريضية حتى عهد البابا نيقولاس الرابع في أواخر القرن الثالث عشر، وخلال هذه المدة الزمنية التي تستغرق حوالي نصف القرن يعمد إلى رصد الأساليب التي استخدمها الرهبان في التبشير بالحروب الصليبية وذلك في ضوء التغييرات الميدانية التي كانت تشهدها أرض المعركة في المشرق الإسلامي. وهو يلاحظ أن الإخوانيات لم تقتصر في جهودها على الدعوة إلى «إنقاذ الأراضي المقدسة» بل كثيراً ما لعبت

أدواراً محلية تمثلت في محاربة «الهراطقة» المحليين وذلك لصالح السلطة البابوية في روما.

والحقيقة أن الكتاب هذا، الذي كان في الأساس أطروحة دكتوراه لجامعة لندن، يكشف الكثير من المعلومات عن جوانب مجهولة من دور رهبانيات الفرانسيسكان والدومنيكان في التجييش للحروب الصليبية في القرن الثالث عشر، وهو يشير تلميحاً إلى دورها في «حروب الاسترداد الكاثوليكية» في أسبانيا في مرحلة لاحقة. ومما يعنينا نحن في العالم العربي أن نطرح جملة تساؤلات عن نشاطات هذه الرهبانيات ليس فقط في القرن الثالث عشر، بل أيضاً في القرون اللاحقة عندما صارت البلاد العربية الخاضعة للسيطرة العثمانية مفتوحة أمام «بعثات التبشير» للرهبانيات الأوروبية!